مكانة الفواصل
من الإعجاز
في القرآن الكريم

للأستاذ محمد رجاء حنفي عبد المتجلي

من الباحثين من ينظر إلى الفاصلة ـ أو السجع ـ في الكلام على أنهّا مناسبة لفظيّة مرغوبة ومطلوبة، لأنهّا تريح القارىء، وترشده إلى تلوين الصورة، وإجادة الوقف، وتزيد من روعة التلاوة، بما تخلع عليها من إيقاع محبّب، وتمدّ القرّاء بألوان من التنغيم المؤثّر، والتطريب الأخّاذ.

وهذا إن صدق في سجع الكتّاب، فإنّه لا يصدق إطلاقاً على الفاصلة في القرآن الكريم، فالفاصلة في القرآن الكريم لها مزّي مهمّة، ترتبط بما

قبلها من الكلام، بحيث تنحدر على الأسماع إنحداراً، وكأنّ ما سبقها لم يكن إلاّ تمهيدا لها، وبحيث لو حذفت لاختلّ المعنى في الآية، ولو سكت عنها القارىء، لاستطاع السامع أن يختمه بها إنسياقاً مع الطبع والذوق السليم.

ومثال ذلك قول المولى تبارك وتعالى: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون. ثمّ قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله﴾ ــ سورة غافر: الآيات (٧١/٧٣) ــ ، فقوله عزّ وجلّ: ﴿في الحميم﴾ متّصل بقوله جلّ شأنه: ﴿يسحبون﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿من دون الله﴾ متّصل بقوله جلّ شأنه: ﴿تشركون﴾، وينبغي الوقف عند نهاية كلّ آية منها.

تعريف الفواصل

الفواصل هي: «الكلمات التي تتماثل في أواخر حروفها، أو تتقارب صيغ النّطق بها»، وهذه الفواصل من جملة المقصود من الإعجاز في القرآن الكريم، لأنّها ترجع إلى محسّنات الكلام، وهي من جانب فصاحة الكلام، فمن الغرض البلاغيّ الوقوف عند الفواصل لتقع في الأسماع فتتأثّر بها نفوس السامعين بمحاسن ذلك التماثل.

والفاصلة القرآنيّة عنصر أساسيّ من عناصر اللّغة الإيقاعيّة، والقرآن الكريم يمتاز بحسن الإيقاع، فتأتي الفاصلة في ختام الآيات حاملة تمام المعنى، وتمام التوافق الصوتيّ في آن واحد.

ولقد حاول العلماء، في دراساتهم حول القرآن الكريم أن يقفوا على مظاهر الإعجاز فيه، فبهرهم من جماله الصوتيّ ما استوقفهم واسترعى انتباههم، فكان القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي توضع من أجل تلاوته تلك المؤلّفات العديدة في التجويد، وعلم القراءات، حتّى تبقى لكلمات الله عزّ وجلّ تلك الحلاوة الصوتيّة الرائعة، التي تؤثّر في النفوس، وتسمو بمشاعر الإنسان.

ومن هنا كانت فواصل القرآن الكريم ذات أثر واضح في اليقظة النفسيّة، التي تأتي عن طريق حاسّة السمع في الإنسان، لأنّ ذلك الإيقاع الصوتيّ يرهف الإحساس، وينشّط الإنفعال.

اقسام الفواصل

تنقسم الفواصل بحسب مصطلحاتها البلاغيّة إلى أربعة أقسام:

١ ـ **فواصل متماثلة:** وهي التي تبلغ درجة التماثل في الوزن وحرف الرويّ، ومثال ذلك قول المولى تبارك وتعالى: «والنجم إذا هوى. ما ضلّ صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى» ـ سورة النجم: الآيات (٣/١).

٢ ـ **فواصل متقاربة أو متوازنة:** وهي التي تتّفق في الوزن دون حرف الرويّ، ومثال ذلك قول المولى تبارك وتعالى: «وآتيناهما الكتاب المستبين. وهديناهما الصراط المستقيم» ـ سورة الصافات: الآيتان (١١٧، ١١٨) ـ.

٣ ـ **فواصل مطرفة:** وهي التي تتّفق في حرف الرويّ فقط دون الوزن، ومثال ذلك قول المولى تبارك وتعالى: «اقتربت الساعة وانشقّ القمر. وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا: سحر مستمر» ـ سورة القمر: الآيتان (١، ٢) ـ.

٤ ـ **فاصلة منفردة:** وهي التي ليست متماثلة ولا متقاربة، فقد تأتي السورة القرآنيّة كلّها على نسق معيّن، وتأتي فيها آية لها فاصلة مختلفة منفردة، كالفاصلة التي على حرف «الثاء» في سورة «الضحى»، في قول المولى تبارك وتعالى: «وأمّا بنعمة ربّك فحدّث» ـ سورة الضحى: الآية (١٠) ـ، حيث لا توجد فاصلة على حرف «الثاء» غير هذه الآية في تلك السورة، وذلك دليل على ثراء التعبير القرآنيّ بنواح صوتيّة متنوّعة، مع ارتباط الفواصل بالمعنى.

الفواصل وتنوّع حروفها

إنّ المتتبّع للفواصل القرآنيّة ليراها بوجه عام قد بنيت في السورة الواحدة أو في معظم آياتها على حرف واحد، يتكرّر ويتردد مع كلّ آية، فإذا لم يتكرّر نفس الحرف تكرّر ما

يشبهه من الناحية الصوتيّة.

وهناك تقارب بين حرفي «النون»، و«الميم»، التي بنيت عليها فواصل سورة «الفاتحة»، وكذلك سورة «البقرة» بقيت فواصلها على حرف «النون»، و«الميم»، ماعدا أربعا وثلاثين آية، جاءت الفواصل في تسع عشرة آية على حرف «الراء»، وفي ثماني آيات على حرف «الياء»، وفي خمس آيات على حرف «الدّال»، وفي آية واحدة على حرف «اللاّم»، وفي آية واحدة على حرف «القاف».

وهناك - أيضا - تقارب بين «الرّاء»، واللاّم، و«الميم»، و«النون»، ولتقارب هذه الحروف يقع بينها الادغام(١)، فتدغم «الرّاء»، مع «اللاّم»، في مثال قولهم «اشغل رحبة»، لقرب المخرجين، ولأنّ فيها انحرافا قليلا نحو «اللاّم»، وقاربتها في طرف اللّسان، وهما في الشّدة وجرى الصوت سواء، والادغام أحسن.

وتدغم «النون» في «الرّاء» لقرب المخرجين على طرف اللّسان، وهي مثلها في الشّدة، وذلك كقولنا: «مِنْ راشِد، ومَنْ رَأيت»، وتدغم بغنّة وبغير غنّة (٢).

وتدغم «النون» في «الميم» لأنّ صوتهما واحد، وهما مجهوران، حتّى أنّنا لنكاد نسمع «النون» كـ «الميم»، و«الميم» كـ «النون»، حتّى نتبيّنهما، فصارتا بمنزلة «الرّاء»، و«اللاّم» في القرب، وإن كان المخرجان متباعدين إلاّ أنّهما اشتبها، لخروجهما جميعا في الخياشيم (٣).

وإذا نظرنا في فواصل القرآن الكريم وجدنا أنّ كثيرا منها قد بني على هذه الأحرف الأربعة، الأمر الذي أعطي للفواصل ميزة التوافق الصوتيّ، فسورة «الأنعام»، وعدد آياتها مائة وخمس وستون آية، بنيت فواصلها على هذه الأحرف الأربعة «ن ، م ، ر ، ك»، ما عدا الآية رقم (١٠٤)، وهي قوله عزّ وجلّ: «وما أنا عليكم بحفيظ»، فقد جاءت فاصلتها على حرف «الظاء»(٤).

وسورة «التوبة»، وعدد آياتها مائة وتسع وعشرون آية، بنيت فواصلها على هذه الأحرف الأربعة السابقة، ما عدا الآية رقم (٧٨)، وهي قوله عزّ وجلّ: «وأنّ الله علاّم الغيوب»، فقد جاءت فاصلتها على حرف «الباء».

وسورة «يوسف»، وعدد آياتها مائة وإحدى عشرة آية، بنيت فواصلها كلّها على هذه الأحرف الأربعة.

وسورة «النور»، وعدد آياتها أربع وستون آية، بنيت فواصلها على هذه الأحرف الأربعة، ماعدا الآيتين (٣٨)، و(٣٩)، فقد جاءتا على حرف «الباء»، وهما قوله عزّ وجلّ: «بغير حساب»، و«سريع الحساب».

سورة «الفرقان»، وعدد آياتها سبع وسبعون آية، بنيت فواصلها على هذه الأحرف الأربعة، ما عدا الآية رقم (٧١)، وهي قوله عزّ وجلّ: «ومن تاب وعمل صالحا فإنّه يتوب إلى الله متابا»، فقد جاءت فاصلتها على حرف «الباء».

وسورة «القصص»، وعدد آياتها ثمان وثمانون آية، فقد بنيت فواصلها على هذه الأحرف الأربعة.

وسورة «الممتحنة»، وعدد آياتها ثلاث عشرة آية، بنيت فواصلها على هذه الأحرف الأربعة، ما عدا الآية رقم (٦)، وهي قوله عزّ وجلّ: «ومن يتولّ فإنّ الله هو الغنيّ الحميد». فقد جاءت فاصلتها على حرف «الدّال».

وقد تُبْنَى بعض فواصل السورة القرآنيّة على بعض هذه الأحرف، مثل «م، ن، ل»، كما في سورة «الحجر»، أو «ن، م، ر»، كما في سورة «النحل»، أو «م، ن، ر»، كما في سورة «الروم»، أو «م، ر، ن»، كما في سورة «الأنبياء»، أو «م، ن»، كما في سورة «القلم»، أو «م، ر، ن، ا» كما في سورة التحريم أو «ل ، م» كما في سورة «المزمل» أو «د، ل ، م» كما هو سورة «الإنسان»، أو تأتي الفاصلة على حرف واحد، مثل «ر» كما في سورة «الكوثر»، أو «ن» كما في سورة «المنافقون» أو «ل» كما في سورة «الفيل».

ويتضّح من خلال الأحرف المذكورة لفواصل القرآن الكريم، مدى عطاء الفواصل من التوافق الصوتيّ، فالإيقاع الصوتيّ من أبرز سمات نظم القرآن الكريم.

علاقة الفاصلة بما قبلها

إنّ الفواصل القرآنيّة لا تأتي لمجردّ الحلية اللّفظيّة دون اعتبار للمعنى، ولكنّ الفواصل تأتلف مع ما يدلّ عليه الكلام، وقد رأى القدامى أنّ علاقة الفاصلة بما قبلها من النّصّ القرآنيّ

في الآية، تنحصر في علاقات أربع، هي:

١ ـ التمكين :

وهو أن يمهّد قبلها تمهيدا تأتي به الفاصلة ممكنة في مكانها، مستقرّة في قرارها، غير نافرة ولا قلقة، متعلّقا معناها بمعنى الكلام كلّه تعلّقا تامّا، بحيث لو طرحت اختلّ المعنى واضطرب الفهم.(٥)

ويعرض «الزركشي» أمثلة لهذا النوع من الفواصل في القرآن الكريم، فمن التمكين قول المولى تبارك وتعالى: «وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويّا عزيزا» ـ سورة الأحزاب: الآية (٢٥) ـ، فلو انتهت الآية عند قوله عزّ وجلّ: «وكفى الله المؤمنين القتال» لتوهّم بعض الضعفاء أنّ ذلك يعني موافقة الكفّار في اعتقادهم أنّ الريح التي حدثت كانت سبب رجوعهم، ولم يبلغوا ما أرادوا، وأنّ ذلك أمر اتّفاقيّ، فأخبر الله سبحانه وتعالى في فاصلة الآية عن نفسه بالقوّة والعزّة، ليعلم المؤمنين ويزيدهم يقينا وإيمانا على أنّه الغالب الممتنع، وأنّ حزبه كذلك، فقال عزّ وجلّ: «وكان الله قويّا عزيزا».

كما أنّ هذه الفاصلة بيّنت أنّ تلك الريح التي هبّت ليست اتّفاقا، بل هي من إرساله عزّ وجلّ على أعدائه كعادته، وأنّه ينوّع النصر للمؤمنين ليزيدهم إيمانا بنصرهم، مرّة بالقتال كيوم «بدر»، وتارة بالريح كيوم «الأحزاب»، وتارة بالرعب كـ «بني النضير»، وطورا ينصر عليهم كيوم «أحد»، تعريفا لهم أنّ الكثرة لا تغني شيئا، وأنّ النصر من عنده كيوم «حنين».

ومن «التمكين» قول المولى تبارك وتعالى: «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللّطيف الخبير» ـ سورة الأنعام: الآية (١٠٣) ـ، فالله عزّ وجلّ لا تدركه الأبصار، لأنّ البصر حاسّة النظر، وقد تطلق على العين من حيث أنها محلّه، وإدراك الشيء عبارة عن الوصول إليه، والإحاطة به، أي: لا تصل إليه ولا تحيط به.

وهو يدرك الأبصار، لأنّها يحيط بها علمه، إذ لا تخفى عليه خافية، وهو اللّطيف الخبير، فيدرك ما لا تدركه الأبصار، ويجوز أن يكون تعليلا للحكمين السابقين على طريقة

«اللّف»، أي: لا تدركه الأبصار لأنّه اللّطيف، وهو يدرك الأبصار لأنّه الخبير، فيكون اللّطيف مستفادا من مقابل الكثيف لما لا يدرك بالحاسّة، ولا ينطبع فيها(٦).

ولقد تناول البلاغيّون «التمكين» في بحوثهم الكثيرة، وهم يطلقون عليه «تشابه الأطراف»، وهو: «أن يختم الكلام بما يناسب أوّله في المعنى»(٧)، وهو نوع من «مراعاة النظير»، وهو: «أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد»(٨).

وسمّاه «قدامة» ومن تابعه «ائتلاف القافية»، والباقون سمّوه «تمكين القافية»، وهو الأصحّ، وهو: «أن تكون القافية متمكّنة في موضعها، مستقرّة في قرارها، غير نافرة ولا قلقة، ولا مستدعاة ممّا ليس له تعلّق بلفظ البيت أو معناه، وأكثر فواصل القرآن الكريم على هذه الصورة(٩).

ولا يخرج «التمكين» عن مغزى «تشابه الأطراف» في المقصود الأهمّ منهما، وهو «التقرير واستحكام النظم»، و«تشابه الأطراف»، كالمحسنّات كلّها يلذّ للسمع، ويخفّ على القلب، متى قوي الإنسجام والتلاؤم غير نابٍ به موقعه.

٢ ـ التصدير :

وهو أن تكون تلك اللّفظة بعينها تقدّمت في أوّل الآية، وقد قسّمه «ابن المعتزّ» إلي ثلاثة أقسام(١٠):

القسم الأول: أن يوافق آخر الفاصلة آخر كلمة في الصّدر، وذلك كقول المولى تبارك وتعالى: «أنزله بعلمه والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيدا» ـ سورة النساء: الآية (١٦٦) ـ، وقوله عزّ وجلّ: «فما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» ـ سورة «التوبة»: الآية (٧٠) ـ، وقوله جلّ شأنه: «وما كان الناس إلاّ أمّة واحدة فاختلفوا، ولولا كلمة سبقت من ربّك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون» ـ سورة يونس: الآية (١٩) ـ، وقوله عزّ وجلّ: «رجال يحبّون أن يتطهّروا، والله يحبّ المطهّرين» ـ سورة التوبة: الآية (١٠٨) ـ.

القسم الثاني: أن يوافق أوّل كلمة منه، وذلك كقول المولى تبارك وتعالى: «وهب لنا من لدنك رحمة إنّك أنت الوهّاب» ـ سورة آل عمران: الآية (٨) ـ، وقوله جلّ شأنه: «قال: إنّي لعملكم من القالين» ـ سورة الشعراء: الآية (١٦٨) ـ، وقوله جلّ وعلا: «وتخشى

الناس والله أحقّ أن تخشاه » ـ سورة الأحزاب : الآية (٣٧) ـ .

٣ ـ **القسم الثالث** : أن يوافق بعض كلماته، وذلك كقول المولى تبارك وتعالى : « ولقد استهزىء برسل من قبلك، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » ـ سورة الأنعام : الآية (١٠) ـ ، وقوله جلّ شأنه : « انظر كيف فضّلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » ـ سورة الإسراء : الآية (٢١) ـ ، وقوله عزّ وجلّ : « قال لهم موسى : ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى » ـ سورة طه : الآية (٦١) ـ ، وقوله جلّ وعلا : « فقلت : استغفروا ربكم إنّه كان غفّارا » ـ سورة نوح : الآية (١٠) ـ .

وتتّضح بلاغة التصدير في أنّه يؤدّي معنى دقيقاً غير التردّد الصوتيّ، بحيث يفقد الكلام هذا المعنى إذا وجد فيه ثمّ أخليناه منه، فمقام المقارنة وتقرير الحال في المعاينة يقتضي أن يتكرّر لفظ الخشية، التي هي مناط الغرض في قول المولى تبارك وتعالى : « وتخشى الناس والله أحقّ أن تخشاه » ـ سورة الأحزاب : الآية (٣٧) ـ ، فدلالة التصدير دلالة لفظيّة.

٣ ـ التوشيح :

وهو أن يكون في أوّل الكلام ما يستلزم القافية، والفرق بينه وبين التصدير أنّ التوشيح دلالته معنويّة، وذلك كقول المولى تبارك وتعالى : « إنّ الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » ـ سورة آل عمران : الآية (٣٣) ـ ، فإنّ « اصطفى » لا يدلّ على أنّ الفاصلة « العالمين » باللّفظ ، ولكن بالمعنى، لأنّه يعلم أنّ من لوازم اصطفاء شيء أن يكون مختارا على جنسه وجنس هؤلاء المصطفين على العالمين.

وكقوله تبارك وتعالى : « وآية لهم اللّيل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » ـ سورة يس : الآية (٣٧) ـ ، وقد قال « الزركشي » في توضيح هذه الآية : « فإنّ من كان حافظا لهذه السورة، متيقّظا إلى أنّ مقاطع فواصلها النون المردفة، وسمع صدر هذه الآية « وآية لهم اللّيل نسلخ منه النهار » ، علم أنّ الفاصلة « مظلمون » ، لأنّ من انسلخ النهار عن ليله أظلم مادامت تلك الحال(١١).

وأورد بعض الآيات القرآنيّة التي تندرج تحت التوشيح ، كقوله تبارك وتعالى : « يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم، فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرّة

شرًا يره» ـ سورة الزلزلة: الآيات (٦/٨) ـ ، فإن قوله تعالى: «ليروا أعمالهم» يدلّ على التقسيم، وكقوله عزّ وجلّ: «وأسرّوا قولكم أو اجهروا به إنّه عليم بذات الصدور، ألا يعلم من خلق وهو اللّطيف الخبير» ـ سورة الملك: الآيتان (١٣، ١٤).

ويرى «أبو هلال العسكريّ» أنّ هذه التسمية غير لازمة بهذا المعنى، ولو سمّى «تبيينا» بدلا من «التوشيح» لكان أقرب، ثمّ عرّفه بقوله: «أن يكون مبتدأ الكلام ينبئ عن مقطعه، وأوّله يخبر بآخره، وصدره يشهد بعجزه، فممّا في كتاب الله عزّ وجلّ من هذا النوع قوله تعالى: «وما كان الناس إلاّ أمّة واحدة فاختلفوا، ولولا كلمة سبقت من ربّك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون» ـ سورة يونس: الآية (١٩) ـ ، فإذا وقفت على قوله تعالى: «فيما فيه» عرف السامع أنّ بعده «يختلفون» ، لما تقدّم من الدلالة عليه.

«وضرب منه آخر، وهو أن يعرف السامع مقطع الكلام، وإن لم يجد ذكره فيما تقدّم، وهو كقوله تعالى: «ثمّ جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون» ـ سورة يونس: الآية (١٤) ـ ، فإذا وقف على قوله: «لننظر» مع ما تقدّم من قوله تعالى: «جعلناكم خلائف في الأرض» علم أنّ بعده «تعملون»، لأنّ المعنى يقتضيه(١٢).

وقد عرّفه «الخطيب القزويني» بقوله: «وهو أن يجعل قبل العجز من الفقرة، أو البيت ما يدلّ على العجز إذا عرف الرويّ»(١٣)، ومثّل له بقول المولى تبارك وتعالى: «وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» ـ سورة «العنكبوت»: الآية (٤٠) ـ .

إنّ الارتباط بين الفواصل والآيات التي سيقت من أجلها يدلّ على التحام الفاصلة بالآية التحاما تامّا، يستقرّ في النفس، وتتقبّله أعظم قبول، وقد يُظَنّ في بعض الأحيان أنّ الآية تهيّئ لفاصلة بعينها، ولكنّ القرآن الكريم يأتي بغيرها، إيثارا لما هو ألصق بالمعنى، وأشدّ وفاء بالمراد.

وهذا الارتباط قد يكون واضحا من أوّل وهلة، وقد يحتاج إلى طول ورويّة، ودقّة إمعان، ولقد أشار إلى هذا «الفخر الرازيّ»، حيث قال: «ما من حرف ولا حركة في القرآن الكريم إلاّ وفيه فائدة، ثمّ إنّ العقول البشريّة تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها، وما أوتي البشر من العلم إلاّ قليلا»(١٤).

وبلاغة «التوشيح» تظهر في إثارة السابق من اللّفظ ذكاء المخاطب لتقدير اللآحق قبل النطق به، وإدخاله شريكا مع المتكلّم في إتمام الكلام عن طريق التداعي، وهو نوع من ردّ الأعجاز على الصدور، روعي فيه ملحظ خاصّ، وهو إشعار السابق باللآحق.

ويُعَدّ «التوشيح» من أزهى أنواع التكرير وأدلّها على الترابط النفسيّ لمدلول التعبير، وله تهشّ نفس السامع بالتحرّك مع المتكلّم، وانتظار صدق الحدس بما يقدّر من اللّفظ، وقد جاء أكثره لتقرير المعاني والأحكام بالتذييل أو التعليل.

٤ ـ الإيغال :

لقد سمّي «الإيغال» بذلك لأنّ المتكلّم يكون قد جاوز المعنى الذي هو آخذ فيه، وبلغ إلى زيادة الحدّ، وذلك كقول المولى تبارك وتعالى: «أفحكم الجاهليّة يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون» ـ سورة المائدة: الآية (٥٠) ـ ، فإنّ الكلام قد تمّ بقوله عزّ وجلّ: «ومن أحسن من الله حكما»، ثمّ أتى بفاصلة تناسب القرينة الأولى، فلمّا أتى بها أفاد معنى زائدا.

وعندما أريد تمام الفاصلة بما يناسب السياق، جاءت هذه الزيادة تفيد جديدا، وهو الدلالة على أنّه لا يعلم أنّ حكم المولى تبارك وتعالى هو أحسن من كلّ حكم إلاّ من أيقن أنّه واحد حكيم عادل.

ومن «الإيغال» ـ أيضا ـ قول الحقّ سبحانه وتعالى: «ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولّوا مدبرين» ـ سورة النحل: الآية (٨٠) ـ ، فإنّ المعنى قد تمّ بقوله عزّ وجلّ: «ولا تسمع الصمّ الدعاء»، ثمّ أراد أن يعلم تمام الكلام بالفاصلة، فقال: «إذا ولّوا مدبرين».

«فإن قيل: ما معنى «مدبرين» وقد أغنى عنها «ولّوا»؟ .. قلت: لا يغني عنها «ولّوا»، فإنّ التولّي قد يكون بجانب دون جانب، بدليل قوله: «أعرض ونأى بجانبه» ـ سورة الإسراء: الآية (٨٣) ـ .

«ولا شكّ أنّه سبحانه لمّا أخبر عنهم أنّهم صمّ لا يسمعون، أراد تتميم المعنى بذكر تولّيهم في حال الخطاب، لينفي عنهم الفهم الذي يحصل من الإشارة، فإنّ الأصمّ يفهم بالإشارة ما يفهم السامع بالعبارة، ثمّ إنّ التولّي قد يكون بجانب مع لحاظه بالجانب الآخر، فيحصل له إدراك بعض الإشارة، فجعل الفاصلة «مدبرين» ليعلم أنّ التولّي كان بجميع

الجوانب، بحيث صار ما كان مستقبلاً مستدبراً، فاحتجب المخَاطَب عن المخَاطِب، أو صار من ورائه، فخفيت عن عينه الإشارة، كما صمّت أذناه عن العبارة، فحصلت المبالغة من عدم الاسماع بالكليّة»(١٥).

فالجملة «الشرطيّة الظرفيّة الواقعة في الفاصلة إيغال يناسب المعنى، ويؤكّد المبالغة، إذ إنّه ينفي عنهم الفهم الذي يحصل بالإشارة، فهم فاقدون للسمع بصفة الصم، ولدلالة الإشارة بصفة التولّي مدبرين»(١٦).

وقد عرّف «أبو هلال العسكريّ» هذا «الإيغال» بقوله: «هو أن يستوفي معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه، ثمّ يأتي بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحا، وشرحاً، وتوكيداً، وحسناً، وأصل الكلمة من قولهم: أوغل في الأمر إذا أبعد في الذهاب فيه»(١٧).

ثمّ ذكر الفرق بينه وبين «التتميم»، الذي هو أن توفّي المعنى حظّه من الجودة، وتعطيه نصيبه من الصحّة، ثمّ لا تغادر معنى يكون فيه تمامه إلاّ توردہ، أو لفظا يكون فيه توكيده إلاّ تذكره، ذكر الفرق بقوله: «ويدخل أكثر هذا الباب في باب التتميم، وإنّما يسمّى إيغالا إذا وقع في الفواصل والمقاطع»(١٨).

ولقد فرّق «ابن أبي الأصبع» بين «التتميم» و«الإيغال» بقوله: والفرق بين التتميم والإيغال من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّ التتميم لا يرد إلاّ على كلام ناقص شيئا ما، والإيغال لا يرد إلاّ على معنى تامّ من كلّ وجه.

الثاني: اختصاص الإيغال بالمقاطع دون الحشو مراعاة لاشتقاقه، لأنّ الموغل في الأرض هو الذي قد بلغ أقصاها أو قارب بلوغه، فلمّا اختصّ الإيغال بالطرف، لم يبق للتتميم إلاّ الحشو.

الثالث: أنّ الإيغال لابدّ وأن يتضمّن معنى من معاني البديع، والتتميم قد يتضمّنه وقد لا يتضمّنه، وأكثر ما يتضمّن الإيغال التشبيه والمبالغة، حتّى لو قيل: إنّه لا يتعدّى، هذين الضربين لكان حقّا.. والتتميم يتضمّن طورا المبالغة، ويتضمّن حينا الاحتياط، ويأتي مرّة غير متضمّن شيئا سوى تتميم ذلك المعنى»(١٩).

وقد ذكر «السيوطي» هذا «الإيغال» في نوع «الإطناب»، بقوله: «وهو الإمعان، وهو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتمّ المعنى بدونها، وزعم بعضهم أنّه خاصّ بالشعر، وردّ بأنّه وقع في القرآن، من ذلك: «ياقوم: اتّبعوا المرسلين، اتّبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون» - سورة يس: الأيتان (٢٠، ٢١) -، فقوله: «وهم مهتدون» إيغال، لأنّه يتمّ المعنى بدونه، إذ الرسول مهتد لا مخالفة، لكن فيه زيادة مبالغة في الحثّ على اتّباع الرسل، والترغيب فيه»(٢٠).

فمن خلال علاقات الفواصل الأربع السابقة: «التمكين»، و«التصدير» و«التوشيح»، و«الإيغال»، ومن خلال أثرها في بلاغة القرآن الكريم يتّضح أنّ للفاصلة دورا بارزا في أنّها تسهم في الإعجاز عن طريق هذه العلاقات.

بلاغة الفواصل القرآنيّة

إنّ الفواصل في القرآن الكريم ذات أهميّة بالغة في بلاغة القرآن الكريم، فهي محكّ القدرة، كما أنّ القافية - ولله عزّ وجلّ المثل الأعلى - محكّ قدرة الشاعر، ففي بعض الأحيان نجد أنّ القليل من الشعراء يضطرّون إلى القافية اضطرارا، ليجيئوا بها مكمّلة للبيت، وإذا ذهبنا نبحث لها عن معنى أعيانا ذلك.

وليس في فواصل القرآن الكريم فاصلة واحدة جاءت لإكمال الأية إكمالا معيّنا، بل لكلّ فاصلة سرّها البلاغيّ، سواء عرفنا ذلك أم جهلناه، فالبليغ لو رفع كلمة واحدة من القرآن الكريم، وأدار لسان العرب على أن يأتي بأخرى تسدّ مسدّها لأعياه ذلك.

وللقرآن الكريم «مسحة خلاّبة عجيبة، تتجلّى في نظامه الصوتيّ، وجماله اللّغويّ، ويراد بنظام القرآن الكريم الصوتيّ: اتّساق القرآن الكريم، وائتلافه في حركاته وسكناته، ومدّاته وغنّاته، واتّصالاته وسكتاته، اتّساقاً عجيباً، وائتلافاً رائعاً، يسترعي الأسماع، ويستهوي النفوس، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أيّ كلام آخر من منظوم ومنثور».

«ويراد بجمال القرآن الكريم اللّغويّ: تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن الكريم، في رصف حروفه، وترتيب كلماته ترتيبا يتضاءل دونه كلّ ترتيب ونظام تعاطاه

الناس في كلامهم».

«ولقد وصل هذا الجمال اللّغويّ إلى قمّة الإعجاز، بحيث لو دخل شيء من كلامْ الناس في القرآن الكريم لاعتلّ مذاقه في أفواه قارئيه، واختلّ نظامه في آذان سامعيه».

«ومن عجيب أمر هذا الجمال اللّغويّ، وذاك النظام الصوتيّ، أنّهما كما كانا دليل إعجاز من ناحية، كانا سوراً منيعاً لحفظ القرآن الكريم من ناحية أخرى، ذلك أنّ من شأن الجمال اللّغويّ والنظام الصوتيّ أن يسترعي الأسماع، ويثير الانتباه، ويحرّك داعية الإقبال في كلّ إنسان إلى هذا القرآن الكريم».

«وبذلك يبقى أبد الدهر سائدا على ألسنة الخلق، وفي آذانهم، ويعرف بذاته ومزاياه بينهم، فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله، مصداقا لقوله سبحانه: «إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون» ـ سورة الحجر: الآية (٩) ـ (٢١).

وبعـــد :

لقد أسهمت الفواصل بدور فعّال في إعجاز القرآن الكريم، وذلك من خلال التناسق الصوتيّ واللّغويّ، وجاءت الفاصلة وثيقة الصلّة بالمعنى، حيث كان المعنى هو المراد، وتوافرت فيها جميع الخصائص الصوتيّة، التي تنشأ منها ظاهرة التوافق الموسيقيّ في الفواصل، وبذلك يصعب تحريك كلمة ووضع أخرى مكانها أو تبديلها بغيرها، وهذا هو سرّ إعجاز الفواصل، فكانت بمثابة السور المنيع والحصين لحفظ القرآن الكريم.

وإنّ حبك عناصر الجملة إنّما يبدأ من التناسق الصوتيّ في الكلمات، ثمّ من التأليف التركيبيّ بين المفردات حينما تتكوّن منها الجمل.

فمن أوجه الإعجاز في القرآن الكريم تكوين كلماته، من أصوات متلائمة الجرس، سهلة المقاطع، متوازنة الإيقاع، جميلة التأليف، وهذا جميعه ندركه في القرآن الكريم، كتاب المولى تبارك وتعالى الخالد على مرّ الأيام، وتوالي العصور، وإلى أن يرث الله عزّ وجلّ الأرض ومن عليها، وصدق ربّ العزّة حيث يقول: «كتاب أحكمت آياته» ـ سورة هود: الآية (١) ـ.

الهوامش

١ ـ الإدغام هو : اللّفظ بحرفين حرفا كالثاني مشدّدا .

٢ ـ الغنّة هي : « إطالة لصوت النون مع تردّد موسيقي محبّب فيها » ، كتاب « الأصوات اللّغويّة » ، للدكتور إبراهيم أنيس ، صفحة (٧٠) ، طبعة الأنجلو المصرية ، سنة ١٩٧٩ م .

٣ ـ « الكتاب » ، لسيبويه ، صفحة (٤٥٢) ، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .

٤ ـ « بصائر ذوي التمييز في وظائف الكتاب العزيز » ، للفيروزآبادي ، الجزء الأوّل ، صفحة (١٨٦) ، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار ، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة ، سنة ١٩٦٣ م .

٥ ـ « البرهان في علوم القرآن » ، للزركشي ، الجزء الأوّل ، صفحة (٧٩) ، الطبعة الأولى ، دار إحياء الكتب العربيّة بمصر ، سنة ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م .

٦ ـ « تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم » ، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي ، الجزء الثالث ، صفحة (١٧٠) ، طبعة دار المصحف .

٧ ـ « الإيضاح في علوم البلاغة » ، للخطيب القزويني ، صفحة (٣٥٦) و (٣٥٧) ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلميّة ببيروت ، سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

٨ ـ المرجع السابق ، صفحة (٣٠٥) .

٩ ـ « شرح الكافية البديعيّة في علوم البلاغة ومحاسن البديع » ، لصفي الدين الحليّ ، صفحة (٢٦٧) ، تحقيق الدكتور نسيب نشاوي ، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة ، طبعة سنة ١٩٨٣ م .

١٠ ـ « البديع » ، لابن المعتز صفحة (٩٣) ، تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، طبعة سنة ١٣٧٤هـ / ١٩٤٥ م ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

١١ ـ « البرهان في علوم القرآن » ، للزركشي ، صفحة (٩٥ ، ٩٦) .

١٢ ـ « الصناعتين » ، لأبي هلال العسكري ، صفحة (٣٠٢) ، تحقيق الأستاذين : على محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربيّة ، سنة ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م .

١٣ ـ « الإيضاح في علوم البلاغة » للخطيب القزويني ، الجزء الرابع ، صفحة (٢١) .

١٤ ـ التفسير الكبير « للفخر الرازي ، الجزء (٢٥) ، صفحة (٦٢) ، الطبعة الثانية ، دار الكتب العلميّة بطهران .

١٥ ـ « البرهان في علوم القرآن » للزركشي ، الجزء الأوّل ، صفحة (٩٦) ، و (٩٧) .

١٦ - «بديع القرآن» لابن أبي الأصبع، تحقيق الدكتور حفني محمد شرف، صفحة (٨٩)، الطبعة الأولى، مكتبة نهضة مصر، سنة ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م .

١٧ - «الصناعتين» لأبي هلال العسكري، صفحة (٣٠١) .

١٨ - المرجع السابق ، نفس الصفحة .

١٩ - «تحرير التحبير» لابن أبي الاصبع، الجزء الأوّل، صفحة (٢٤١)، تحقيق الدكتور حفني محمد شرف، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة بالقاهرة، سنة ١٣٨٣ هـ.

٢٠ - «الاتقان في علوم القرآن» للسيوطي، الجزء الثالث، صفحة (٢٢٠) ، تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار التراث بالقاهرة.

٢١ - «مناهل العرفان» لمحمد عبد العظيم الزرقاني، الجزء الثاني، صفحة (٢٠٥)، و(٢٠٩)، مطبعة عيسى الحلبي بالقاهرة .

المراجع

١ - «البديع في ضوء أساليب القرآن» ، للدكتور عبد الفتاح لاشين، طبعة دار المعارف بالقاهرة، سنة ١٩٧٩م.

٢ - «التحرير والتنوير» ، للإمام محمد الطاهر بن عاشور، طبعة الدار التونسيّة للنشر، سنة ١٩٨٤ م.

٣ - «من أسرار اللغة» ، للدكتور إبراهيم أنيس، طبعة الانجلو المصريّة، سنة ١٩٧٩ م.

٤ - «من أسرار القرآن» ، للدكتور علي حسن العماري، طبعة سنة ١٩٧٧ م .

٥ - «من بلاغة القرآن» ، للدكتور أحمد أحمد بدوي، الطبعة الثالثة، مكتبة نهضة مصر، سنة ١٣٧٠ هـ/ ١٩٧٠ م.

٦ - «صفوة التفاسير» ، للأستاذ محمد علي الصابوني، الطبعة الأولى، بيروت، سنة ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م.

٧ - «في ظلال القرآن» ، لسيد قطب، الطبعة العاشرة، مطبعة دار الشروق، بيروت، سنة ١٩٨٢م.

٨ - «من روائع الإعجاز» ، للدكتور عز الدين علي السيد ، الطبعة الأولى، دار الطباعة المحمديّة، سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧ م .

٩ - «فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم» ، للدكتور فتحي أحمد عامر طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة بالقاهرة ، سنة ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م.